مجلة المجلات

علقت مجلة المجاهد الجزائرية (عدد 381 عام 1967) على استفتائنا حول اللغة العربية فى المقال التالي :

نشر المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع للجامعة العربيه نتائج استفتاء علمي حول اللغة العربية على جانب عظيم من الاهمية ، وسانناول فى حديثي بعض القضايا العامة المتعلقة بمبدأ تطوير العربية مما كان محورا لاكثر المناقشات التي دارت هنا فى الجزائر حول الموضوع ومما يمكن ان يكون بمثابة مدخل ولو جزئيا للاستفتاء ونتائجه .

« لااعتقد أن هناك لغة مما يتفاهم به اهل الارض، غير قابلة للتطوير وبمنجاة عن المشاكل ، وذلك لسبب بسيط هو انها كسائر ظواهر الحياة ناتجة عن عوامل وظروف دائمة التغير وقد يكون حجم المشاكل التي تعاني منها اللغة ، هو نفسه ، دليلا على مدى الحيوية، أو التحرك الذي يسجله المجتمع المنتسب اليها . فاما اذا علقت تميمة ضد التحرك تميمة ترسب ، او من مصلحة طبقية محتكرة ، فانها تتجرد من صفة اللغة الاساسية وتصبح علامة جمود وتفسخ تدمغ من ينتمي اليها : تنتفي الصفة الاساسية لان التفاهم انما يتخذ طابع التيار السيال وليس شكل القوالب المتصلبة وتصبح دليل تفسخ ، لان هذا نتاج حتمي لانغلاق أعضاء المجتمع بعضهم دون بعضهم .

ورغم ان ذلك فى حكم البديهيات ، الا ان الذي يتحدث مع مجموعة من المنتمين الى الثقافة العربية يجد فيها من ينكر ارادة التطوير وصفة التغير .

وفى هذا الصدد ونحن امام استفتاء لتطوير اللغة العربية ، لابد ان نتذكر ما جرى هنا فى الجزائر فى صيف السنة الماضية فقد القيت عدة محاضرات عمومية وكتبت كثير من المقالات الصحفية طوال اسابيع فضلا عن المناقشات والتعليقات الشفوية ، وكان كل هذا « النشاط الفجائي » مكرسا للرد على دعوة كانت قد عرضت لتطوير اللغة العربية ، وكانت وجهة الردود كلها او جلها معارضة للدعوة .

ولست اكتب هذه الكلمة لاعيد ما قيل فى اوانه من ردود على تلك الردود ولكني اود ان اقف عند رد واحد فقط يبدو انه اعقلها وانه صادر عن بعض « التخوفات الطيبة » وهو الرد الذي يعارض اثارة قضايا تطوير العربية فى الجزائر ، لا لانه ضد التطور نفسه ولكن لان الدعوة اليه فى بلد ما زال فى اول عهده بالاستقلال ولم يتشبث بعد بلغته القومية فى مختلف الميادين ؛ أمر قد يؤدي الى الضرر بالتعريب وعرقلته ، فاهل الفرنسية من ذوي النوايا الحسنة سيتخوفون من المشاكل التي تعاني منها العربية ، وبذلك يعودون الى ايثار الفرنسية ، واهل النوايا الرديئة منهم ، سيجدون فى الدعوة حجة ضد العربية واهلها والمنتمين اليها ..

والواقع ان هذه التخوفات لا أساس لها عند التدقيق كما انها تنم عن سلبية الاحتياطي الذي نعالج به قضايانا .

لا اساس لها لان كل لغة ، كما سبقت الاشارة ، تواجه مشاكل فلولوجية ربما بقدر ما يعاني مجتمعها من قضايا تطويرية ، مشاكل تختلف ولاشك فى طبيعتها وفى مدى حدتها ولكنها على أية حال قائمة ، والحاجة والظروف هي التي تحدد بعد ذلك نوع المشكل ومداه، فقد يتخذ طابع التنظيم وقد يتخذ طابع التغيير وقد يقتصر على البحث النظري الذي قد تستغل من بعد معطياته فى تطبيقات معينة ، وفى اللغة الفرنسية نفسها فقهاء وتربويون يسهرون على تشذيبها وتنظيمها .

هذا أولا ، وثانيا يجب الا نفهم ان الاخذ بالتعريب عندنا هو أمر خاضع للمساومة ، لموافقة فريق ما وتفضله بل يجب ان لا نفهم انه مجرد اختيار قد تم وكان فى الامكان ان يتم غيره ، كلا ان **التعريب فوق المساومة وفوق الاختيار بل انه مقوم وطني لا بديل عنه الا بالغاء جانب من وجودنا** . ومعنى ذلك انه يجب ان يتم بموافقة فريق ما أو بمخالفته وان يتم سواء اثار مشاكل أم لم يثر . وما معنى النصوص الدستورية المتعلقة بذلك ، اذن ؟ ما معناها اذا كانت الارادة الوطنية العامة مرهونة بارادات جزئية خاصة !

سنقول ان هذه مسائل نظرية بحت وان التعريب فى امكانه ان يظل فى الدستور دون أن يتحقق فى الواقع، ان لم يؤمن به المشرفون على الاجهزة التنفيذية ، أو ان وجد من يثير صعوبات العربية وتطويرها .

فأما ان ذلك أمر نظري فهو صحيح ولكن يبدو أن تفهمه من جانب المنتمين الى العربية انفسهم ، شيء ضروري ، لاننا كثيرا ما نتصرف فى القضية بثقة ضئيلة وسطحية ، كما لو كان التعريب مجرد منحة اعطيت لنا .. واما ان اثارة صعوبات العربية والدعوة الى تطويرها امر قد يساعد على العرقلة فهو اعتقاد مخطىء تماما ، فاذا وجد المعرقلون فان عملهم لن يتوقف على صعوبات العربية ، وطالما كانت نواياهم سيئة فانهم سيعثرون على الف تعلة اخرى .

والحقيقة انه هنا تكمن اغلوطة كبرى يستخدمها هؤلاء عارفين حقيقتها ويقع فى حبائلها ناس طيبو النية، ذلك ان الدعوة الى تطوير العربية انما تنطلق من الصعوبات الى الحل والتيسير وليس الى الابقاء على هذه الصعوبات ، فكل تغيير كما هو بديهي يفترض من حيث الزمان حاضرا ومستقبلا ، الاول يشكل اطار الواقع الذي يراد تغييره والثاني يكون اطار الصورة المنشودة لهذا الواقع ، ووجه الاغلوطة انها تلغي الصورة المنشودة فى المستقبل وتضيف زمانها الى الواقع الحاضر ، وبذلك يمتد هذا عبر ديمومة مصطنعة وتصبح الصورة تجريدا لا بعد له ، ومن ثمة لا امكانية لتصور تحقيقها .

فاذا كان منطق الدعوة الى التطوير ، انما يتجه من المشاكل القائمة الى حلها بموازاة بين التغيير وابعاده الزمنية ، فانه لا مجال اذن للتخوف على سير التعريب ، بل ان العكس عند التدقيق هو الصحيح ، فبصرف النظر عن مبدا التعريب كمقوم وطني ومند فى الدستور ، فان حل مشاكل العربية هو الذي يساعد على انجاحه وفى نفس الوقت على فعاليته ، وليس الابقاء على هذه المشاكل .

يساعد على انجاح التعريب الآن من مواضيع التطوير تيسير وتبسيط اللغة وتقريبها الى التناول ، فالقاموس الذي يحوي عشرات الآلاف من الكلمات المهجورة والمترادفة يصبح محصورا فى نسبة جد منخفضة ، والقواعد الكثيرة والتي لا تؤدي وظيفة مبررة يقع الاستغناء عنها ، وهكذا يقال فى المماحكات البلاغية والتنطعات الاملائية .. وبذلك ينخفض الجهد اللازم لتعليم العربية على المستويين النفسي والزمني معا ، بفتح امكانيات واسعة أمام التعريب السريع .

والميزة الاخرى التي يتيحها التطوير هي كما اشرت الفعالية ، ذلك بأنه يمكن ان نتعلم بعد جهد طويل كل تلك الشكليات الفارغة ، ولكن دون أن نجد لها مجالا للنفع والاستغلال . لانه بقدر ما تزداد هذه القشور بقدر ما تزداد ممانعتها للاستعمال الحيوي والتواصل الاجتماعي .

وعلى العكس من ذلك سيتيح التطور ، لا ، تسهيلا على الطلاب فحسب ، بل ومساعدة على الاشعاع داخل المجتمع ومرونة فى التعبير عن متطلباته الحيوية .

وهكذا يتبين انه لا اساس لتلك التخوفات المشار اليها بل انها فى غير محلها وكان ينبغي أن تجد موضوعها فى الوضع اللغوي القائم وليس فى الدعوة الى اصلاحه .

أما ما تنم عنه التخوفات من سلبية فهي تتمثل فى الاستسلام تجاه الاغلوطة التي يستخدمها معارضو

العربية وانصار العربية الواقعون فى حبالها ، فبدل القيام بمجهود للتوضيح والتصحيح يكشف الاغلوطة نسارع الى تشذيب الدعوة التي وقعت ضحية لها ، فنحن اشبه بمن يمنع الدواء عن مريضه خشية ان يكتشف الجيران المرض او خشية ان ينتج عن تعاطي العلاج صراخ يقلق حساسيتهم !

وفى تقديري انه لا وطن عربيا اصلح من الجزائر نفسها ، لبدء اصلاح العربية ، وذلك — فضلا عن الاسباب العامة المتقدمة — لانها اشد البلاد العربية تخلفا فى هذا الميدان ، ولان التدارك يقتضي اجراء لا بديل عنه هو التسهيل ، ومن ثمة خفض الزمن اللازم حسب المنهاج التقليدي .

واكثر من ذلك ان ضعف « القاعدة اللغوية » عندنا واقصد عدم تغلغل العربية وقلة الاطارات والمؤسسات المعنية بها معناه خفة العبء الذي سيواجهنا فى عملية التطوير ، فالشروع هنا يكون مباشرا فى حين انه فى الاقطار الاخرى سيجد اصطداما بالقاعدة العريضة الراسخة والمتمكنة فى كثير من الاجهزة اللغوية والافراد الذين تعلموا على الطريقة التقليدية .. ممايستدعي قبل الشروع فى الاصلاح او معه عملية « تطهيرية » .

والخلاصة ان معارضة الاصلاح فى الجزائر بالاستناد الى واقع الجزائر هي حجة وان كانت تبدو مغرية الا انها عند التدقيق معكوسة تماما .

اما بقية الحجج التي ادلي بها فى الردود المشار اليها فى اوائل الكلمة ، والملخصة كلها فى الادعاء بأن اصلاح العربية قضية ميتة تغلب عليها الزمن ، فقد نوقشت فى اوانها بالتفصيل ، ويكفي ان نشير اليوم الى هذا الاستفتاء الذي اجرى حديثا حول اللغة العربية

فهل نحن على استعداد لتصحيح تلك التخوفات؟ وهل نحن على استعداد للتسليم بأن موضوع اصلاح العربية موضوع حيوي ؟

بل وهذا جوهر القضية ، هل نحن على استعداد لتحقيق الاصلاح ؟